

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[408] وتضرعه إلى الله تعالى لا غير، وهي العبارة التي تصور البعض أنها من قبيل الشكوى، ولكنه خطأ فاحش لأنها لا تتضمن أي نوع وأي أثر للشكوى فيها حيث تقول: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نَجْوًا فَقَالَ أَنَّى آمُرُ بِهَذَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ) - الآية الثانية - لتستعرض صبر "النبي يعقوب" الذي يُعد أسطورة في الصبر والاستقامة، فقد فَقَدَ ابنه وأعز ما لديه في الحياة، وهو "يوسف" الذي كان يحبّه حبًّا جمًّا، وعاش سنوات مديدة بعين باكية وصبر عظيم حتّى انه عميت عيناه، ولكن رغم ذلك فإنه لم تفلت منه كلمة مخالفة لرضى الله تعالى وكان شاكرًا وصابرا دائما وكما تعبر الآية على لسان يعقوب نفسه بكلمة "صبر جميل" حيث تقول (وَجَاءُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَدِينًا بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ بَصُرَتْ أَبْصَارُهُمْ فَرَأَوْهُ مُصَوِّبًا) - الآية الثالثة - وهكذا نرى إن الأخوة الكذّابين غفلوا عن تمزيق قميص يوسف عندما جاءوا به ملطخا بالدم وقالوا لأبيهم إنّ الذئب قد أكل يوسف في غفلة منا، ولهذا لم يصدق يعقوب كلامهم هذا وقال: (يَلْهَى السَّوْءَ لَوْلَا إِيمَانُكُمْ بِهِمْ أَنَّكُمْ تَرَاهُمْ أَذْهَبًا مُّسْتَعْجِلِينَ) - الآية الرابعة - ولكن بما انه لم يكن يملك أي شيء اتجه هذه الحادثة المؤلمة فاكتفى بالبكاء على يوسف وقال: (فَصَدِّقُوا بَدْعَهُمْ وَلَا تَلْمِزُوهُ وَمَنْ يُلْمِزْهُ فَإِنَّهُ بَدِيعُ غَيْبَتِكُمْ لَمَّا بَدَأْتُمْ بِهِ وَلَا يَخَافُ عِلْفَ النَّاسِ وَاللَّهُ مُّخَبِّرُ الْغَيْبِ) - الآية الخامسة - أي الصبر المقترن مع الشكر على هذه المحنة دون أن تمتد إلى قلبه حالة الجزع الذميمة. وبالنسبة لعبارة "فَصَدِّقُوا بَدْعَهُمْ" فللمفسرين بيانات مختلفة في تفسيرها، فذهب البعض إلى أنّ "الصدق الجَمِيلُ" هو الصبر الذي لا يخالطه الجزع ولا الشكوى للناس من المصيبة، وذهب البعض الآخر إلى أنّ الصبر الجميل أن يكون بدافع إلهي وطلباً لرضى الله تعالى، وقد ورد في الروايات انه سُئِلَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الصبر الجميل ما هو؟ وقال "هُوَ الَّذِي لَا شَكَّ وَلا مَعَه" (2). وذهب آخرون إلى أنّ الصبر الجميل هو ما لم يقترن مع الشكوى إلى الناس، وأجمل منه 1. سورة يوسف، الآية 18. 2. تفسير القرطبي، ج 5، ص 338.